# نعم
# إبراهيمُ ابتلى اللهَ
# واللهُ يَخْشَى العلماءَ !!

## بقلم : يوسف محمد المحميد

عندما يُشْهِر طلابي سلاحهم المعتاد في وجهي فيسألونني عن فائدة دراسة علم النحو، أرفع في وجوههم ذلك المثال الذي ما انفك معلمٌ للعربية يردده أمام طلابه، وهو قوله تعالى من الآية الثامنة والعشرين في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، وأُبَيِّنُ لهم كيف أن رفع لفظ الجلالة ونصب كلمة "علماء" قد يوقعهم في نِسْبَةِ الخوف إلى الله سبحانه وتعالى، فالآية فيها تقديم للمفعول وتأخير للفاعل لغرض بلاغي يفهمه من درس أسلوب القصر وطرقه ودلالاته في علم البلاغة.

وفي بعض الأحيان أَلْمَحُ في وجوه طلابي عِلْمَهم بجوابي قبل النطق به، وأرى ابتسامة على وجوههم تشبه تلك التي تعلو وجه مَن تَيَقَّنَ مِن تحقُّقِ تنبؤاته، فقد سمعوا الجواب مرات عديدة ممن ابتلاه الله بهم وابتلاهم به قبلي، فألجأ إلى إجابة جديدة لكنها نُسِجَت على منوال الإجابة القديمة نفسه، وتسير على الاستراتيجية القديمة عينها ، فبدلاً من آية سورة فاطر ألجأ إلى الآية الرابعة والعشرين بعد المئة من سورة البقرة ، فتراني بوجهٍ تعلوه ابتسامة المباغت الذي يتوقع النصر أتلو عليهم قوله ﷻ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ ، ومرةً أخرى أُبَيِّنُ لهم أن رفع كلمة "إبراهيم" ونصب لفظ الجلالة يقلب المعنى ويوقعهم في المحظور الشرعي، فهم بهذا اللَّحْنِ يجعلون الله ﷻ محلاً للابتلاء!!.

وبعد الهروب من السؤال بإحدى الإجابتين أو كلتيهما أرجع إلى درسي وأنا على يقين بأن إجابتي لم تلامس قلوبهم رغم أنها قد تكبح السؤال في عقولهم أو تلقيه في مقبرة الأسئلة المنسية.

وأعترف أني الآن تخليت عن تلك الإجابتين النمطيتين، فقد اكتشفت أنهما تجنيان على عقول الطلاب وعلى القرآن الكريم وعلى اللغة العربية، وتكفيني ضحية من هذه الضحايا الثلاث لأستحق أعظم عقاب، وفيما يلي بيان كيف تَجْنِي هذه الإجابات على الضحايا الثلاث.

إن الافتراض الذي نمنعه في الآيتين وارد في قراءات قرآنية وإن كانت من غير القراءات المعروفة، فقد قرأ عمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة آية سورة فاطر برفع لفظ الجلالة ونصب "العلماء" فصارت الآية : "إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءَ"، فيكون اللهُ هو من يخشى العلماءَ، وقرأ ابن عباس وأبو الشعثاء وأبو حنيفة آية سورة البقرة برفع إبراهيم ونصب لفظ الجلالة بهذه الصورة : "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ" ، ليكون إبراهيمُ هو من يبتلي اللهَ، فإذا سَلَّمْنَا جدلاً بصحة نسبة القراءتين إلى أصحابهما، فهل نُرتِّب عليهم النتائج نفسها التي كنا نُرتِّبُها على طلابنا عندما نتشدق أمامهم بذكر الآيتين؟.

لقد التفت الزمخشري إلى هذه القراءات ونظر إليها بعين النحوي البليغ الذي يفهم تعقد الظاهرة اللغوية، فذهب إلى أن الخشية إذا أُسْنِدت للهِ في هذا الموضع لا تدل على الخوف

بـل هي مصـروفة إلى المجاز فتدل على التعظيم، فالله يعظم العلماء ويجلهم.

وفي آية البقرة توقف الزمخشـري وقفة رائعة ليفسـر القراءة التي تجعل الله محلاً لابتلاء إبراهيم لا العكس، فقد فسـر الابتلاء هنا بالدعاء، فإبراهيم دعا الله مختبراً كما فعل عندما طلب رؤية كيف يحي الموتى، فصار فعل الابتلاء هنا مـؤدياً معنى الدعاء مصحوباً بكشف إحدى بواعث الدعاء، وروعة وقفة الزمخشـري تكمن في تفسيره كل الظواهر اللغوية في الآية وفق الرأيين المشهور والشاذ بـاقتدارٍ غيرِ غريبٍ على جار الله محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري.

ورغم أني لا أذهب إلى توجيه الزمخشـري الخشيةَ لمعنى التعظيم، وأتوقف متأملاً عند توجيه الابتلاء لمعنى الدعاء، إلا أنني أُقِرُّ بالفضل لجار الله الزمخشـري في كسـر إحدى حواجز الغرور لدي، فقد علمني التواضع أمام اللغة وعدم التسـرع في إطلاق الأحكام، فالمعاني كثيرة والقرائن متعددة، وباب الاجتهاد مفتوح على مصـراعيه بشـرط التقيد بالدليل والانضباط بالمنهج.

ويمكن تفسير الخشية بدلالات أخرى غير الخوف وغير التعظيم، منها معنى الكراهية ، وإلى هذا المعنى وجه المفسـرون قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾، قائلين إن الخشية إذا صدرت من العبد فإنها تعني الخوف وإذا نُسِبَت إلى الله دَلَّتْ على الكراهية، ولكن معنى الكراهية لا يتناسب مع علاقة الله بالعلماء، لذا نُبْحِرُ بين المعاني الأخـرى لنرى أيها يناسب سياق الآية حسب قراءة أبي حنيفة، ونقع على معنى الرجاء من بين معاني الفعل "خَشِـيَ"، وهو معنىً لطيف يناسب الآية ، فقد وردت الآية بعد ذكر مظاهر التنوع في خلق الثمار والجبال والدواب والبشـر، والمرجو من ذكرها أن تثير عقول العلماء للبحث عن الله في كل هذه المظاهر، ولا يخفى على أحد أن الرجاء هو توقع حدوث أمرٍ محبوب، وقد استخدم الله ألفاظ الرجاء (لعل وعسـى) ونسبها لنفسه في كثير من مواضع القرآن الكريم.

ومن المعاني الأخرى للفعل "خَشِـيَ" معنى "العلم"، وهو أيضاً يناسب سياق الآية فقد جاءت الآيات بعد ذكر عدم المساواة بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور ، ثم ذكر تكذيب الجاهلين دعوة الرسل السابقين ثم ذكر مظاهر التنوع في الخلق ، ليقول في النهاية إن الله يعلم العلماء من عباده الذين تتفاعل عقولهم مع آيات الكون والـوحي، فلا يبتئس النبي بتكذيب الناس لـه لوجود أولئك العلماء، بل إن المعنيين (الرجاء والعلم) يـمكن احتمالهما في القراءة المشهورة التي يكون فيها العلماء فاعلين للخشية ، فيمكن أن يكون معناها أن العلماء بعلمهم أكثر الناس رجاءً لله وأبعدهم عن القنوط واليأس، كما يمكن حملها على العلم ، فيصبح معناها: (العلماء أكثر الناس معرفة بالله).

والمعنى المعروف للفعل "ابتلى" في آياة سورة البقرة هو الامتحان، لكنه يحتمل معاني عديدة، معظمها قريب من الدعاء كالإخبار والبيان والإبلاغ، كما أنـه يحتمل معنى "الإرادة والقصد" وكل هذه المعاني يمكن توجيهها لخدمة معنى الدعاء الذي وظفه الزمخشـري لتفسير قراءة ابن عباس، وهي أيضاً مناسبة للتعبير عن المعنى الذي يتبادر إلى ذهننا (الاختبار)، وليس من المستنكر أن يكون الله ﷻ محل اختبار العبد، إذا كان اختباراً بطلب أمرٍ مـا لإثبات فكرة حول الله في العقل أو تطمين القلب.

نعم ، قد تكون القراءتان السابقـتان غير صحيحتين، وقد يكون أصحابـها قد وقعوا في اللحن، أو أن تكون نسبتهما إليهم بـاطلةً، ولكن هذا لا يعني أن نترك الاستفادة من النقاش الذي أثارتاه ، ولا يعني أن نتخلى عن الفوائد التي جنيناها من ذلك النقاش، لأنَّنا بإغفال كل الآليات العلمية لتوجيه المعنى نجني على عقولنا بسجنها في مجال ضيق، ونجني على القرآن لأننا حبسناه بعقولنا المسجونة أساساً ، ونجني على اللغة لأننا تناولناها تناولاً سطحياً ولم نراع تشابك الظواهر اللغوية التي لا يمكن للعقل استيعابها دفعة واحدة بل يحتاج إلى كثير من التأني ومزيد من البحث والتنقيب ليتمكن من الاقتراب من المعنى.